

بقلم: وليد سيف\*

لا أميل بطبعي إلى كتابة المراثي حتى فيمن جمعني بهم صداقة حميمة أو شراكة مثمرة أو كليهما. ينعقد اللسان أمام صدمة الموت المبالغت لا سيما ذلك الذي لا تمهد له نذر المرض أو التقدم في السن. وقد يحتاج بعضنا إلى وقت حتى يستقر النبأ العظيم في أغوار النفس. وينحسر الإنكار المؤقت ونشأشع أمام سلطة الموت القاهرة. وإن يستقر الفقيده في مرقده الأخير ينبعث طيفه في ملكوت الذاكرة ويتوالى شريط الصور أكثر توهجا وأعمق أثرا من واقع كنا نأخذ في الأمور المسلم بها تلك التي تتراحم في معترك الحياة وشجونها وشؤونها فتقلب بين التقدم في حيز النظر وبين التراجع المؤقت إلى الخلفية الغائمة. فالآن تحضر الصورة ملء الإطار إذ يغيب صاحبها فالمعاني تتعين في المفارقات المتقابلة فلا معنى للحضور إلا بالتقابل مع الغياب ولما معنى للغياب إلا بالتقابل مع الحضور. وكذلك الموت والحياة.

نعم إن فاجعة الفقد أوسع من العبارة. وأكثر ما يقلقني من هذا التحدي أن يجد كاتب المراثي نفسه مضطرا إلى الكدج البلاغي ومرودة الشعر العصي فينشغل عن موضوعه بأسلوبه وعن فقيده بلغته وعن المرثي براثته. وبدلا من أن يتقدم المراحل في وعيه ووجدانه ومخيلته يتقدم المقارئ!

ولذا فإن أبلغ ما ينعي به مبدع كبير مثل حاتم علي هو استدعاء آثاره الباقية. وهي على كل حال حاضرة حية مذكورة بلا تذكارة. إلا أنها تبقى طريقة للاحتفاء والتكريم. وأي شهادة يمكن أن تزيد على تلك الآثار وهي التي صنعت أو صنع بها اسم وصورت هويته التي يتعرف بها عند جمهوره العربي. وليس وراء ذلك إلا حديث الذكريات الخاصة والكلام على المزاج والشخصية والطبائع. وهي أمور يتعرف بها كل إنسان ولما تميز بالضرورة مبدعا عن غيره. وليس من شأنها أن تزيد في تقديره وإبداعه ولما ينبغي لها أن تنتقص منه. فالمنجز الإبداعي هو الهوية التي ينماز بها. ورب دائع متجول يملك من الصفات الإنسانية الجميلة ما يلزمنا التواضع أمامها. ومع ذلك فلن يغادر عربته إلى كتب السير إلا أن يحوله أحد المبدعين إلى شخصية سردية تحيل إلى دراما الحياة والشرط الإنساني من دون تعيين للأصل المفرد الذي ما زال يتجول في الطرقات يسعى في رزق عياله ولما يعلم أن كاتبها ما قد استلهمه وحقق به ما لا يستطيع أن يحقق بعضه لنفسه.

هكذا كان حاتم علي يختفي وراء الكاميرا ليصور غيره. وكذلك حال الراوي في الأعمال السردية المكتوبة والبصرية لا تسمع صوته ولما ترى وجهه وهو يقص عليك حتى يكتمل السرد. فإن خلف في نفسك أثرا عميقا باقيا ذكرت أنه صناعة الراوي المستتر فتعرفه بأثره وأن ما قصه عليك هو شهادته وخياله وعالمه وهويته ورسالته وبعض من ذاته.

يسألونك عن المشاركة في صناعة الدراما ولما سيما تلك التي تكون بين الكاتب والمخرج. والكلام فيها طويل واسع المضطرب. وقد فصلت جوانب منها في فصل خاص من كتاب سيرتي الذاتية والفكرية الشاهد المشهود. وحسبي هنا أن أقول إن المشاركة الإبداعية لا تنهض بالتطابق ولما ينبغي لها أن تكون. ولكنها تقوم بالتفاهم والتكامل والاحترام المتبادل والنزاهة وتوقّي ذعة الاستحواذ ثم التلاقي على جوامع الحق والعدل والقيم الإنسانية والجمالية العابرة للهويات الإيديولوجية. وتلك على أي حال من مقومات الأعمال الإبداعية الفائقة التي تنطلق من الخاص الظرفي إلى المافق الإنساني وأسئلته القلقة وشروطه الوجودية وأشواقه وأحلامه ومخاوفه وصراعاته وانتصاراته وهزائمه ومواطن قوته وضعفه. فإذا توسلت خطابا وعظما أو إيديولوجيا مباشرا جنت على قيمتها الفنية ورسالتها الإنسانية معا. ولما ما الذي يجعل الأدب والفن العظيمين إرثا إنسانيا عابرا للمجتمعات والثقافات مهما تكن هوية منتجها ومهما يكن سياق أحداثه ومهما تكن لغته الأصلية؟ على هذا تترجم الأعمال الإبداعية العالمية ليستقبلها الناس في مجتمعات وثقافات مختلفة. وحسبي كذلك أن أقول في سياق العلاقة بين النص والإخراج ما كررته في غير مناسبة وأوردته في الشاهد المشهود: إن النص الضعيف لا يستطيع إنقاذه مخرج حاذق مهما تكن موهبته. وفي المقابل فإن الإخراج الهزيل يمكن أن يهبط بالنص الممتاز مهما يكن مستوى تميزه. فإذا اجتمع النص القوي مع الإخراج الفائق بلغ العمل غايته.

تلك بعض التأملات التي بعثتها في نفسي وفاة الصديق والمشير حاتم علي. وأخيرا اسمحوا لي أن أنطق عن نفسي وعن حاتم علي فأقول: قولوا في نعي المبدع ما يستحق وما تفيض به نفوسكم من الحب والتقدير ولكن لا تعلنوا نهاية تاريخ الإبداع بنهايته ولما تنعوا المستقبل بنعيه فللحياة طرقها في التجدد. وإنما يبقى إرث المبدعين في ورثتهم كما تتولد النصوص من النصوص ويحرض الإبداع على الإبداع. أما هذه الأفة الثقافية العربية في المانجراف إلى حديث النهايات فهي اغتيال للمستقبل ومعه الماضي الذي يحيا فيه وهو فوق ذلك خذلان لرسالة المبدعين التي هي تحريض من أجل حياة أكثر نبلا وشجاعة ووعيا وجمالا وليست دعوة إلى اليأس والموت وانتحار الأحلام.

حاتم علي ... شكرا ووداعا.